مجموعة سيرة الرسول ﷺ

١٣

فتح مكة

بإشراف

محمد أحمد برانق

لمفتش العام بوزارة التربية والتعليم بمصر

obeikandl.com

obeikandl.com

١

هَاجَرَ مُحَمَّدٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَقَدْ عَزَّ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَتْرُكَ وَطَنَهُ وَأَهْلَهُ وَعَشِيرَتَهُ ؛ وَلٰكِنَّ اللهَ قَدَّرَ لَهُ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا فَاتِحًا ، يُنِيرُهَا بِنُورِ الْإِيمَانِ ، وَيُطَهِّرُهَا مِنْ رِجْسِ الْأَوْثَانِ ، فَطَابَتْ نَفْسُهُ ، وَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ .

أَقَامَ مُحَمَّدٌ بِالْمَدِينَةِ ، مَعَ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَقَامَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ عِدَّةُ حُرُوبٍ .

رَأَى مُحَمَّدٌ فِي نَوْمِهِ ، أَنَّهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ حَوْلِهِ ، فَاسْتَيْقَظَ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ ، وَذَهَبَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَصَلَّى بِالْمُسْلِمِينَ صَلَاةَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ جَلَسُوا كَعَادَتِهِمْ مِنْ حَوْلِهِ يُحَدِّثُهُمْ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا رَأَى فِي نَوْمِهِ ، وَقَالَ لَهُمْ :

« لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ » .

فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِهٰذَا الْخَبَرِ السَّارِّ ، وَانْتَشَرُوا فِي الْمَدِينَةِ يُعِدُّونَ الْعُدَّةَ لِلسَّفَرِ ، وَيَجْمَعُونَ الْأَغْنَامَ ، الَّتِي يَذْبَحُونَهَا تَكْرِيمًا لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

اسْتَعَدَّ الْمُسْلِمُونَ لِلسَّفَرِ إِلَى مَكَّةَ ، وَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ فِي شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ بِستِّ سَنَوَاتٍ ، وَذَهَبُوا لِزِيَارَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَتَخَلَّفَ فِي الْمَدِينَةِ نَفَرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، اعْتَذَرُوا لِمُحَمَّدٍ عَنِ السَّفَرِ وَقَالُوا : شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ؛ فَتَرَكَهُمُ الرَّسُولُ ، وَلٰكِنَّهُمْ مَكَرُوا بِهِ ، وَذَهَبُوا إِلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ قَوْمِهِ ، فَقَالُوا لَهُمْ : كَيْفَ تَذْهَبُونَ إِلَى مَكَّةَ ، وَفِيهَا صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ وَفُرْسَانُهَا ؟ !

قَالَ الْمُسْتَضْعَفُونَ :

إِنَّ مُحَمَّدًا أَقْوَى مِنْ قُرَيْشٍ .

قَالَ الْمُنَافِقُونَ :

إِنَّكُمْ مَغْرُورُونَ . لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا .

تَحَدَّثَ الْمُسْلِمُونَ بِكَلَامِ الْمُنَافِقِينَ ، وَأَشَارَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

بِقَتْلِ الْمُرْجِفِينَ فِي الْمَدِينَةِ ، وَلٰكِنَّ النَّبِيَّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — رَغِبَ عَنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ ، فَتَرَكَهُمْ ، وَأَمَرَ قَوْمَهُ بِالرَّحِيلِ ، فَخَرَجَتِ الْقَافِلَةُ إِلَى الصَّحْرَاءِ ، وَاتَّجَهُوا شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

ظَلَّ الْمُؤْمِنُونَ سَائِرِينَ ، حَتَّى نَزَلُوا بِأَرْضِ عُسْفَانَ ، فَنَصَبُوا خِيَامَهُمْ ، وَقَيَّدُوا دَوَابَّهُمْ ، وَأَوْقَدُوا النَّارَ لِتَهْيِئَةِ الطَّعَامِ .

أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَارِسٌ مِنْ بَعِيدٍ ، يَشُقُّ الْأَرْضَ ، وَيُثِيرُ الْغُبَارَ . فَاتَّجَهَتْ أَنْظَارُ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ آتٍ مِنْ مَكَّةَ ، وَهُمْ فِي شَوْقٍ عَظِيمٍ إِلَى أَخْبَارِ قُرَيْشٍ .

كَانَ ذٰلِكَ الْفَارِسُ رَجُلًا مِنْ بَنِي خُزَاعَةَ ، اسْمُهُ بِشْرُ بْنُ سُفْيَانَ ؛ فَلَمَّا وَصَلَا إِلَى خِيَامِ الْمُسْلِمِينَ ، تَقَدَّمَ إِلَى الرَّسُولِ وَقَالَ :

إِنَّ قُرَيْشًا قَدْ عَلِمَتْ بِمَسِيرِكَ ، فَهَاجَتْ خَوَاطِرُهُمْ ، وَاشْتَدَّ حَمَاسُهُمْ ، وَخَرَجَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى رَأْسِ قُوَّةٍ مِنَ الْفُرْسَانِ الْمُحَارِبِينَ ، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكُمْ بِالْقُرْبِ مِنْ مَكَّةَ ، لِيَنْقَضُّوا عَلَيْكُمْ مِنْ مَكَامِنِهِمْ ، وَيَأْخُذُوكُمْ عَلَى غِرَّةٍ .

اهْتَمَّ الرَّسُولُ بِهٰذَا الْخَبَرِ ، وَلَمْ يَشُكَّ فِي صِدْقِهِ ، لِأَنَّ

بِشْرًا مِنْ أَشْرَافِ خُزَاعَةَ ، وَخُزَاعَةُ مِنْ أَعْدَاءِ قُرَيْشٍ ، وَحُلَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ . فَقَالَ :

يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ ! ! لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الْحَرْبُ ! ! مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي تَحَقَّقَ لَهُمْ مَا أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافِرِينَ ؟!!

وَاللهِ لَا أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي بِهِ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ .

يَا قَوْمِ ؛ لَقَدْ خَرَجَتْ قُرَيْشٌ لِمُنَاجَزَتِكُمْ ، فَإِنْ نَحْنُ تَابَعْنَا الْمَسِيرَ فِي هٰذَا الطَّرِيقِ وَقَعَ الصِّدَامُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، وَكَانَ مَا لَا نُرِيدُهُ مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ . مَنْ مِنْكُمْ يَخْرُجُ بِنَا إِلَى طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمْ ؟ .

تَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنْ قَبِيلَةِ أَسْلَمَ ، وَكَانَ خَبِيرًا بِمَسَالِكِ الصَّحْرَاءِ وَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ .

قَالَ مُحَمَّدٌ : إِذَنْ، تَقَدَّمْ فِي طَلِيعَةِ الْقَافِلَةِ،وَنَحْنُ مِنْ وَرَائِكَ .

أَخَذَ الرَّجُلُ بِزِمَامِ نَاقَةِ الرَّسُولِ ، فَسَلَكَ بِهَا مَسْلَكًا وَعْرًا بَيْنَ شِعَابِ الْجِبَالِ ، حَتَّى أَفْضَى بِهِمْ إِلَى أَرْضٍ سَهْلَةٍ ، ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى الْيَمِينِ ، فَسَارُوا فِي طَرِيقٍ مُمَهَّدٍ حَتَّى أَشْرَفُوا عَلَى

مَكَّةَ ، فَبَرَكَتْ نَاقَةُ الرَّسُولِ فِي الْحُدَيْبِيَةِ .

أَرَادَ النَّاسُ أَنْ يُرْغِمُوهَا عَلَى السَّيْرِ إِلَى مَكَّةَ ، فَأَبَتِ السَّيْرَ كَأَنَّمَا أَصَابَهَا شَرٌّ ، أَوْ حَبَسَهَا حَابِسٌ .

كَانَ الرَّسُولُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَبْدِلَ بِهَا مَطِيَّةً غَيْرَهَا ، أَوْ أَنْ يَتَرَجَّلَ عَنْهَا ، وَيَقْطَعَ الْمَسَافَةَ الْبَاقِيَةَ عَلَى قَدَمَيْهِ ، وَلٰكِنَّهُ رَأَى فِي وُقُوفِهَا سِرًّا يَعْلَمُهُ اللهُ ، وَهُوَ فِي مِثْلِ هٰذِهِ الْأَحْوَالِ لَا يَبُتُّ فِي أَمْرٍ بِرَأْيٍ مِنْ عِنْدِهِ ، حَتَّى يُوحَى إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ .

أَمَرَ النَّبِيُّ قَوْمَهُ أَنْ يَضْرِبُوا خِيَامَهُمْ فِي هٰذَا السَّهْلِ الْمُنْبَسِطِ .

أَلْقَى الْمُسْلِمُونَ رِحَالَهُمْ ، وَهُمْ فِي حُزْنٍ وَحَيْرَةٍ ، يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْ سَبَبِ تَوَقُّفِهِمْ ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحُوا عَلَى أَبْوَابِ مَكَّةَ ، الَّتِي وَعَدَهُمُ الرَّسُولُ بِدُخُولِهَا لِزِيَارَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ .

تَبَلْبَلَتْ أَفْكَارُهُمْ لِذٰلِكَ ، وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَيْئَسُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ .

٢

تَبَلْبَلَتْ أَفْكَارُ الْكُفَّارِ فِى مَكَّةَ وَاضْطَرَبُوا اضْطِرَابًا شَدِيدًا ، وَعَلَّقُوا كُلَّ آمَالِهِمْ عَلَى مُفَاجَأَةِ خَالِدٍ لِلْمُسْلِمِينَ ، قَبْلَ أَنْ يَأْخُذُوا أُهْبَتَهُمْ ، وَيَسْتَعِدُّوا لِلْقِتَالِ .

هَا هُوَ ذَا خَالِدٌ قَدْ عَادَ إِلَيْهِمْ ، يُنَبِّئُهُمْ بِنُزُولِ مُحَمَّدٍ فِى الْحُدَيْبِيَةِ ، وَفَشَلِ خُطَّتِهِمْ وَتَدْبِيرِهِمْ . فَمَاذَا يَفْعَلُونَ ؟ !

إِنَّ مُحَمَّدًا الَّذِى أَخْرَجُوهُ بِلَيْلٍ مِنْ دِيَارِهِمْ ، قَدْ عَادَ إِلَيْهِمْ مُعَزَّزًا بِقَوْمٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَهُمْ وَإِنْ كَانُوا قَدْ هَزَمُوهُ فِى مَوْقِعَةِ أُحُدٍ ، فَإِنَّهُمْ جَرَّبُوا شَجَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتِبْسَالَهُمْ فِى سَبِيلِ عَقِيدَتِهِمْ .

اجْتَمَعَ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ فِى دَارِ النَّدْوَةِ مِنْ جَدِيدٍ ، وَكَانَ حُزْنُهُمْ شَدِيدًا وَخَوْفُهُمْ عَظِيمًا .

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ سَقَطَتْ مَهَابَةُ قُرَيْشٍ

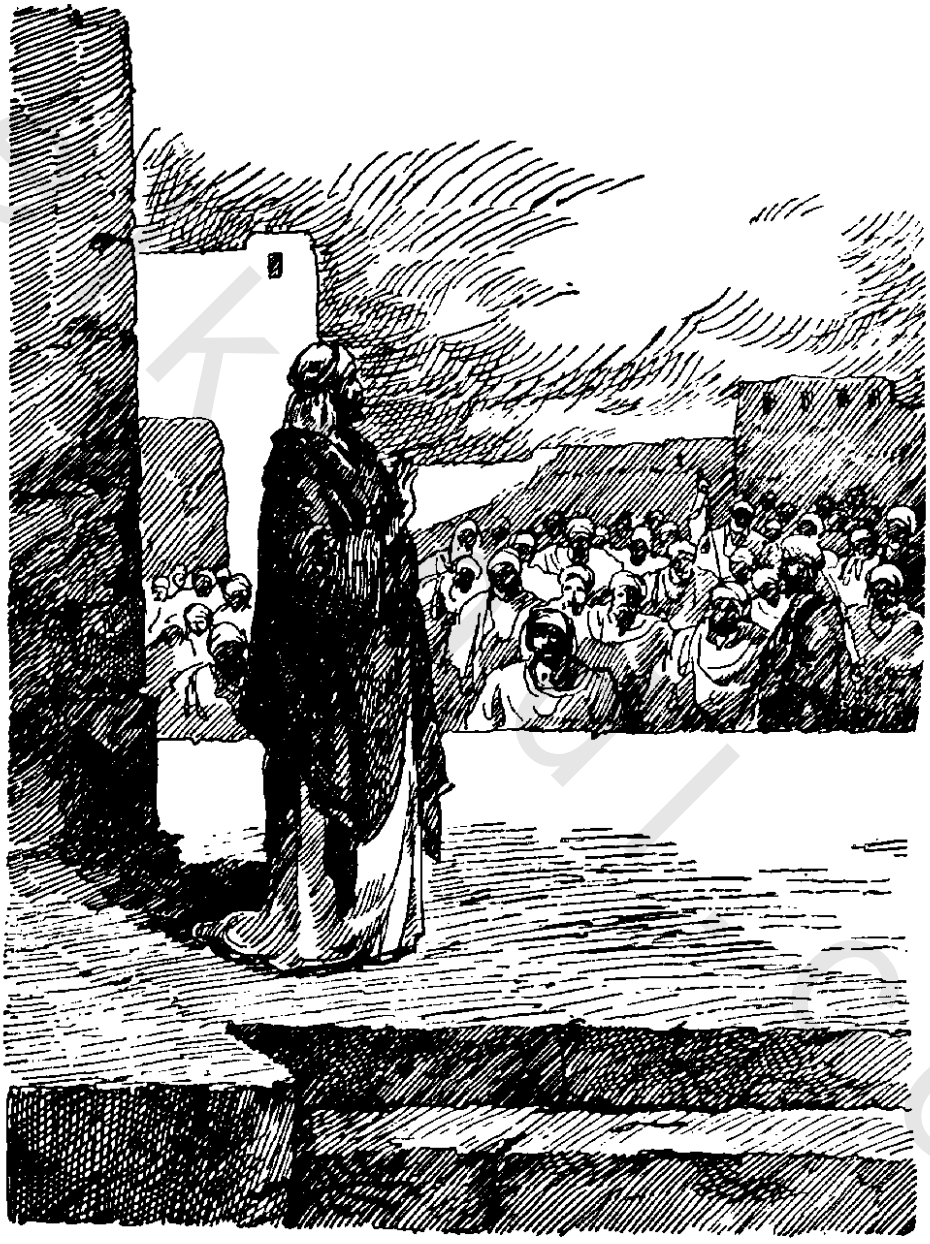

فِي جَمِيعِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ : لِذٰلِكَ اشْتَدَّتْ حَمَاسَتُهُمْ ، وَأَقْسَمُوا أَلَّا يَدْخُلَ مُحَمَّدٌ مَكَّةَ ، مَا بَقِيَتْ فِي صُدُورِهِمْ أَنْفَاسُ الْحَيَاةِ .

تَدَاوَلُوا بَيْنَهُمُ الْآرَاءَ ، وَدَرَسُوا الْخُطَطَ ، فَمُحَمَّدٌ خَارِجَ مَكَّةَ يُهَدِّدُهُمْ ، وَلَهُ فِي قُرَيْشٍ أَشْيَاعٌ وَأَنْصَارٌ ، قَدْ آمَنُوا بِرِسَالَتِهِ ، وَهُمْ شَوْكَةٌ فِي ظَهْرِ قُرَيْشٍ ، إِنِ اشْتَبَكَتْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ .

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ :

إِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ لَمْ يَأْتِ إِلَيْنَا مُحَارِبًا كَمَا يَدَّعِي ، فَالْوَاجِبُ أَنْ نَصْرِفَهُ عَنَّا بِالسِّيَاسَةِ وَالْمُفَاوَضَةِ ؛ وَإِنْ كَانَ يُضْمِرُ لَنَا شَرًّا ، وَيُثِيرُهَا عَلَيْنَا حَرْبًا — فَنَحْنُ جُنُودُهَا وَفُرْسَانُهَا ، وَمَوْقِعَةُ أُحُدٍ مَا زَالَتْ آثَارُهَا عَالِقَةً بِنُفُوسِهِمْ .

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ :

وَمَا الرَّأْيُ يَا أَخَا الْعَرَبِ ؟

قَالَ الرَّجُلُ :

أَرَى أَنْ نُرْسِلَ إِلَى مُحَمَّدٍ نَفَرًا مِنْ بَنِي خُزَاعَةَ ، يَتَبَيَّنُونَ غَرَضَهُ وَيُفَاوِضُونَهُ فِي الصُّلْحِ .

قَالَ أَبُوسُفْيانَ :

وَلِمَاذَا اخْتَرْتَ بَنِي خُزاعَةَ ، وَنَحْنُ لَا نَأْمَنُ مَكْرَهُمْ ، فَهُمْ أَوْلِياؤُهُ وَأَصْفِياؤُهُ .

قَالَ الرَّجُلُ : لَا تَخْشَ مِنْهُمُ الْغَدْرَ ، فَلَهُمْ فِي مَكَّةَ أَمْوالٌ وَأَوْلادٌ ، وَكُهُولٌ وَنِساءٌ ، فَلَا يَغْدِرُونَ بِنَا ، وَأَرْوَاحُهُمْ بَيْنَ أَيْدِينَا .

اسْتَحْسَنَتْ قُرَيْشٌ هٰذَا الرَّأْيَ ، وَوَقَعَ الِاخْتِيارُ عَلَى بُدَيْلِ ابْنِ وَرْقَاءَ الْخُزاعِيِّ لِيَكُونَ عَلَى رَأْسِ وَفْدِهِمْ إِلَى مُحَمَّدٍ .

اسْتَقْبَلَ الرَّسُولُ بُدَيْلًا بِحَفاوَتِهِ الْمَعْهُودَةِ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ بُدَيْلٌ مَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ .

قَالَ الرَّسُولُ :

اِرْجِعْ إِلَى قُرَيْشٍ ، وَقُلْ لَهُمْ :

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ جَاءُوا لِزِيارَةِ الْبَيْتِ ، وَهُمْ يُعَظِّمُونَ حُرْمَتَهُ فَإِنْ هُمْ خَلَّوْا سَبِيلَنَا أَدَّيْنَا شَعَائِرَ الدِّينِ مُسالِمِينَ ، وَخَرَجْنَا مِنْ مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ نَنْتَهِيَ مِنَ الطَّوافِ وَالزِّيارَةِ .

عَادَ الوَفْدُ إِلَى مَكَّةَ ، وَأَخْبَرُوا قَوْمَهُمْ بِمَا قَالَ مُحَمَّدٌ ،

وَنَصَحُوا لَهُمْ ؛ فَاخْتَلَفُوا منْ جَدِيدٍ ، فَفَرِيقٌ مِنْهُمْ يَرَوْنَ أَنْ يُسَالِمُوا مُحَمَّدًا ، وَيُخْلُوا لَهُ طَرِيقَ الزِّيَارَةِ ، وَفَرِيقٌ يُعَارِضُ الرَّأْيَ .

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ :

أَتَسْمَحُونَ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ أَنْ يَطَئُوا أَرْضَكُمْ ، وَهُمْ أَعْدَاؤُكُمْ ، فَتَعْصِبُوا رُءُوسَكُمْ بِالْعَارِ إِلَى الْأَبَدِ ؟!

قَالُوا : وَمَا الرَّأْيُ إِذَنْ ؟!

قَالَ : أَرَى أَنْ نُرْسِلَ لَهُ سَيِّدَ الْأَحْبَاشِ — الْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ فَهُوَ زَعِيمُ قَوْمٍ عُرِفُوا بِالْقُوَّةِ وَشِدَّةِ الْبَأْسِ ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَصُدَّ مُحَمَّدًا عَنَّا ، فَقَدْ أَرَاحَنَا مِنْهُ ، وَكَفَانَا شَرَّهُ . وَإِنْ خَيَّبَ مُحَمَّدٌ رَجَاءَهُ ، أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ ، فَيَنْضَمُّ إِلَيْنَا وَيُحَارِبُ فِي صُفُوفِنَا .

رَأَى مُحَمَّدٌ الْحُلَيْسَ مُقْبِلًا فِي حَاشِيَتِهِ ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ :

هٰذَا الْحُلَيْسُ مُقْبِلًا ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ ، فَأَطْلِقُوا الذَّبَائِحَ لِيَرَاهَا بِنَفْسِهِ ، وَيَعْلَمَ أَنَّنَا قَدْ جِئْنَا لِلزِّيَارَةِ مُسَالِمِينَ .

أَطْلَقَ الْمُسْلِمُونَ النُّوقَ وَالْخِرْفَانَ ، وَرَآهَا الْحُلَيْسُ فِي

قَلَائِدِهَا ، وَقَدْ أَكَلَتْ أَوْبَارَهَا مِنْ طُولِ الْحَبْسِ ، فَعَادَ إِلَى مَكَّةَ دُونَ أَنْ يُقَابِلَ الرَّسُولَ ، وَقَالَ لِأَهْلِ قُرَيْشٍ :

وَاللهِ مَا عَلَى هٰذَا حَالَفْنَاكُمْ ! وَلَا عَلَى هٰذَا عَاقَدْنَاكُمْ ! أَتَصُدُّونَ عَنْ بَيْتِ اللهِ مَنْ جَاءَهُ مُعَظِّمًا ؟ !

أَتَحُجُّ إِلَى الْبَيْتِ جَمِيعُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَيُمْنَعُ عَنْهُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَلَهُ فِيكُمْ شَرَفٌ وَنَسَبٌ ؟ !

لَئِنْ صَدَدْتُمْ مُحَمَّدًا عَنِ الْبَيْتِ لَأُنْفِرَنَّ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَلَأَكُونَنَّ لَهُ نَصِيرًا عَلَيْكُمْ .

خَابَ تَدْبِيرُ أَبِي سُفْيَانَ ، وَرُدَّ كَيْدُهُ إِلَى صَدْرِهِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى الْحُلَيْسِ ، يَرْجُوهُ أَنْ يَتْرُكَهُمْ وَمُحَمَّدًا ، يَتَّفِقُونَ عَلَى رَأْيٍ فِيهِ صَلَاحٌ لِلْجَمِيعِ .

ذَهَبَ الْحُلَيْسُ ، وَقَدْ وَعَدَهُمْ أَلَّا يَتَدَخَّلَ فِي شُئُونِهِمْ .

اطْمَأَنَّتْ قُرَيْشٌ إِلَى الْأَحْبَاشِ ، وَأَرْسَلَتْ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنْ شُجْعَانِهِمْ لِيُنَاوِشُوا الْمُسْلِمِينَ لَيْلًا ، وَيَقْتُلُوا مِنْهُمْ عَدَدًا ، ثُمَّ يَعُودُوا تَحْتَ أَسْتَارِ الظَّلَامِ .

انْطَلَقَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ ،

وَمَا كَادُوا يَبْلُغُونَ مَضَارِبَ الْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى أُحِيطَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَوَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ يُسَاقُونَ إِلَى خَيْمَةِ الرَّسُولِ .

خَرَجَ مُحَمَّدٌ إِلَيْهِمْ ، فَوَجَدَهُمْ فِي ذُعْرٍ شَدِيدٍ ، فَقَالَ لَهُمْ :

مَا الَّذِي يَحُولُ دُونَ قَتْلِكُمْ ، وَقَدْ بَدَأْتُمْ بِالْعُدْوَانِ ؟!

قَالُوا : مَا عَلِمْنَاهُ مِنْ حِلْمِكَ وَكَرَمِكَ .

قَالَ : قَدْ عَفَوْتُ عَنْكُمْ . فَعُودُوا إِلَى قَوْمِكُمْ ، وَقُولُوا لَهُمْ :

مَا جَاءَ مُحَمَّدٌ لِسَفْكِ الدِّمَاءِ ، لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ .

انْطَلَقَ الرِّجَالُ إِلَى قَوْمِهِمْ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ بِنَجَاتِهِمْ ، ثُمَّ بَعَثَ الرَّسُولُ فِي أَثَرِهِمْ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ، لِيَتَّفِقَ مَعَ سَادَةِ قُرَيْشٍ عَلَى رَأْيٍ حَاسِمٍ .

ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى دَارِ ابْنِ عَمِّهِ أَبَانَ بْنِ سَعِيدٍ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ ، إِمَّا الْحَرْبُ وَإِمَّا أَنْ يَتْرُكُوا الْمُسْلِمِينَ لِزِيَارَةِ الْبَيْتِ .

رَضِيَتْ قُرَيْشٌ بِزِيَارَةِ عُثْمَانَ وَحْدَهُ لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ دُونَ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَبَى عُثْمَانُ ذَلِكَ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعاً ، فَغَدَرُوا بِهِ ، وَحَبَسُوهُ عِنْدَهُمْ .

شَاعَ خَبَرُ عُثْمَانَ فِي مَكَّةَ ، وَقَالَ النَّاسُ : إِنَّهُ قَدْ قُتِلَ ، فَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَأَقْبَلُوا عَلَى النَّبِيِّ وَهُوَ جَالِسٌ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، يَطْلُبُونَ الثَّأْرَ وَيُبَايِعُونَهُ عَلَى الْقِتَالِ .

تَقَدَّمَ أَبُو سِنَانٍ الْأَسَدِيُّ ، وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى الرَّسُولِ مُبَايِعاً ، وَتَتَابَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ ، حَتَّى إِذَا انْتَهَوا جَمِيعاً سَلُّوا السُّيُوفَ مِنْ أَغْمَادِهَا ، وَقَفَزَتْ الْفُرْسَانُ عَلَى صَهَوَاتِ خُيُولِهَا ، وَأَذَّنَ مُؤَذِّنُ الْحَرْبِ ، فَتَهَيَّئُوا جَمِيعاً لِلْقِتَالِ .

obeikandl.com

٣

كانَ الْكُفَّارُ فِي مَكَّةَ قَدْ ثَابُوا إِلَى رُشْدِهِمْ ، وَعَرَفُوا خَطَأَهُمْ ، فَاتَّفَقُوا جَمِيعاً عَلَى الصُّلْحِ والْمُسَالَمَةِ ، فَأَرْسَلُوا حَكِيمَهُمْ سُهَيْلَ بنَ عَمْرٍو لِمُفَاوَضَةِ الرَّسُولِ .

رَأَى سُهَيْلٌ الْمُسْلِمِينَ يَتَأَهَّبُونَ لِلزَّحْفِ ، فَأَسْرَعَ إِلَى الرَّسُولِ وَقَالَ لَهُ :

إِنَّ عُثْمَانَ حَيٌّ لَمْ يُقْتَلْ ، وَقَدْ جِئْتُكَ فِي طَلَبِ السَّلَامِ وَإِنِّي أَرَى قَوْمَكَ يَسْتَعِدُّونَ لِلْحَرْبِ هُنَا ، وَقُرَيْشٌ هُنَاكَ قَدْ عَاهَدُوا الْآلِهَةَ أَلَّا تَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ هٰذَا الْعَامَ ، وَقَدْ جِئْتُكَ بِعَهْدٍ فِيهِ أَمْنٌ لَنَا ، وَصَلَاحٌ لَكَ ، فَإِنْ قَبِلْتَهُ كَانَ لَكَ الْفَضْلُ فِي حَقْنِ الدِّمَاءِ ، وَصَوْنِ الْأَرْوَاحِ .

قَالَ الرَّسُولُ :

هَاتِ شُرُوطَكَ الَّتِي حَمَلَكَ الْقَوْمُ إِيَّاهَا .

قَالَ سُهَيْلٌ :

تَعُودُونَ عَنْ مَكَّةَ هٰذَا الْعَامَ بِدُونِ زِيَارَةٍ ، ثُمَّ

تَرْجِعُونَ فِي الْعَامِ الْقَادِمِ ، فَنُخْلِيهَا لَكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، تُؤَدُّونَ فِيهَا شَعَائِرَكُمْ ، ثُمَّ تَخْرُجُونَ بَعْدَهَا .

قَالَ الرَّسُول :

ثُمَّ مَاذَا ؟

قَالَ سُهَيْلٌ :

تُعَاهِدُونَنَا عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ مُسْلِمًا يَرُدُّهُ إِلَى مَكَّةَ ، وَمَنْ جَاءَ مَكَّةَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ لَا يَكُونُونَ مُلْزَمِينَ بِرَدِّهِ إِلَيْهِ .

سَكَتَ مُحَمَّدٌ قَلِيلًا ، وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، كَحَالِهِ عِنْدَمَا يَتَلَقَّى الْوَحْيَ ، وَكَتَمَ الْمُسْلِمُونَ غَيْظَهُمْ لِهٰذَا الشَّرْطِ الْجَائِرِ ، ثُمَّ فَتَحَ مُحَمَّدٌ عَيْنَيْهِ وَقَالَ :

ثُمَّ مَاذَا ؟

قَالَ سُهَيْلٌ :

تُعَاهِدُونَنَا عَلَى الْهُدْنَةِ عَشْرَ سِنِينَ يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ ، وَيَكُفُّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ .

هٰذِهِ شُرُوطُ قُرَيْشٍ ، فَتَدَبَّرِ الْأَمْرَ قَبْلَ اسْتِفْحَالِ الْخَطْبِ ،

فَالآمَالُ مَعْقُودَةٌ بِحِكْمَتِكَ وَحُسْنِ تَقْدِيرِكَ .

أَقَرَّ النَّبِيُّ هٰذِهِ الشُّرُوطَ ، وَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ يَكْتُبَ صِيغَةَ الصُّلْحِ.

مَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ ذٰلِكَ حَتَّى ثَارَ ثَائِرُهُمْ ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُمْ ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَشَدَّهُمْ غَيْظًا وَأَسَفًا فَأَقْبَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ يَسْأَلُهُ ، فَوَجَدَهُ أَكْثَرَ مِنْهُ غَيْظًا وَأَسَفًا ؛ فَتَرَكَهُ وَذَهَبَ إِلَى الرَّسُولِ ، وَقَالَ لَهُ :

أَلَسْتَ بِرَسُولِ اللهِ ؟ ! !

قَالَ : بَلَى .

قَالَ عُمَرُ : أَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ ؟ !

قَالَ : بَلَى .

قَالَ عُمَرُ : أَلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ ؟ ! !

قَالَ : بَلَى .

قَالَ عُمَر :

إِذَنْ عَلَامَ نُعْطَى الدَّنِيَّةَ فِى دِينِنَا ، وَنَقْبَلُ هٰذِهِ الشُّرُوط الْمُجْحِفَةَ بِنَا .

قَالَ مُحَمَّدٌ :

يَا عُمَرُ ؛ أَنَا عَبْدُ اللهِ ، وَهٰذَا قَضَاؤُهُ ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي .

عَادَ عُمَرُ إِلَى مَجْلِسِهِ دَامِعَ الْعَيْنَيْنِ ، وَأَمْسَكَ عَلِيٌّ الْقَلَمَ لِلْكِتَابَةِ .

قَالَ الرَّسُولُ لِعَلِيٍّ :

اكْتُبْ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ سُهَيْلٌ :

هٰذِهِ فَاتِحَةٌ لاَ أَعْرِفُهَا ، لِيَكْتُبْ : بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ . كَتَبَ عَلِيٌّ ، ثُمَّ رَفَعَ الْقَلَمَ وَنَظَرَ إِلَى الرَّسُولِ .

قَالَ الرَّسُولُ : اكْتُبْ : هٰذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو .

فَأَمْسَكَ سُهَيْلٌ بِقَلَمِ عَلِيٍّ ، وَقَالَ :

لَا تَفْعَلْ ؛ لَوْ أَنَّ قُرَيْشًا أَقَرَّتْ رِسَالَتَكَ مَا حَارَبْتُكَ . لِيَكْتُبِ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ .

قَالَ الرَّسُولُ :

اكْتُبْ يَا عَلِيُّ : هٰذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو ؛ ثُمَّ أَتَمَّ صِيغَةَ الْعَهْدِ بِالشُّرُوطِ الَّتِي رَضِيَهَا مُحَمَّدٌ ، ثُمَّ شَهِدَ عَلَيْهِ رِجَالٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ .

خَرجَ النَّبِيُّ يُوَدِّعُ سُهَيْلاً عَلَى بَابِ الخَيْمةِ ، وَإِذَا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ جَاءَ يَرْسُفُ فِي الحَدِيدِ ، أَقْبَلَ عَلَى الرَّسُولِ يُعْلِنُ إِسْلاَمَهُ ، ويَطْلُبُ الحِمَايَةَ مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى لاَ يَفْتِنُوهُ فِي دِينِهِ هذَا الرَّجُلُ هُوَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرو .

سَمِعَ سُهَيْلٌ كَلاَمَ ابْنِهِ ، فَغَاظَهُ ، وَقَالَ لِمُحَمَّدٍ :

هَذَا ابْنِي ، وَأَنَا وَلِيُّهُ ، فَإِنْ قَبِلْتَهُ نَقَضْتَ العَهْدَ .

أَطْرَقَ الرَّسُولُ مُتَأَلِّمًا ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَبِي جَنْدَلٍ ، لِيَتْبَعَ وَالِدَهُ .

أَخَذَ سُهَيْلٌ بِخِنَاقِ ابْنِهِ ، يَجُرُّهُ جَرًّا ، وَابْنُهُ يَسْتَجِيرُ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَصَيْحَاتُهُ تَهُزُّ مَشَاعِرَهُمْ ، فَأَسْرَعَ عُمَرُ إِلَى جَانِبِهِ ، وَمَدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ بِسَيْفِهِ ، لِيُدَافِعَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَكِنَّ أَبَا جَنْدَلٍ لَمْ يَجْرُؤْ عَلَى ذَلِكَ ، فَأَخَذَ إِلَى مَكَّةَ ، وَتَرَكَ الْمُسْلِمِينَ فِي غَيْظٍ مَكْبُوتٍ ، وَحُزْنٍ عَظِيمٍ .

٤

عَادَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَقَدْ عَزَّ عَلَيْهِمْ أَنْ تُمْلِيَ قُرَيْشٌ شُرُوطَهَا ، وَأَنْ يَسْتَسْلِمَ الْمُسْلِمُونَ لِشُرُوطِ هَذَا الْعَهْدِ الْجَائِرِ ، وَظَلَّتْ حَادِثَةُ أَبِي جَنْدَلٍ مَاثِلَةً أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ تُؤَرِّقُهُمْ ، وَتَحُزُّ فِي نُفُوسِهِمْ ؛ حَتَّى جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ قُرَشِيٌّ آخَرُ ، يُعْلِنُ إِسْلَامَهُ ، وَيَطْلُبُ حِمَايَتَهُ وَأَقْبَلَ رَجُلَانِ فِي أَثَرِهِ مِنْ مَكَّةَ ، يَطْلُبَانِ تَسْلِيمَهُ إِلَيْهِمَا .

لَمْ يَجِدِ الرَّسُولُ بُدًّا مِنْ تَسْلِيمِهِ ، فَخَرَجَا بِهِ مُقَيَّدًا بَيْنَ سَمْعِ الْمُسْلِمِينَ وَبَصَرِهِمْ ، وَالْمُسْلِمُونَ يُشَيِّعُونَهُ بِنَظَرَاتِ الْغَضَبِ لَهُ ، وَالْإِشْفَاقِ عَلَيْهِ .

انْتَهَزَ هَذَا الرَّجُلُ الْفُرْصَةَ ، وَقَتَلَ أَحَدَ حَارِسَيْهِ بِسَيْفِهِ فَفَرَّ الثَّانِي إِلَى مَكَّةَ ؛ فَهَامَ الرَّجُلُ ، وَضَرَبَ فِي الصَّحْرَاءِ عَلَى غَيْرِ هُدًى ، حَتَّى لَجَأَ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، وَأَقَامَ هُنَاكَ ، يَسْطُو عَلَى تِجَارَةِ قُرَيْشٍ فِي طَرِيقِهَا إِلَى الشَّامِ ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِ كَثِيرُونَ مِمَّنْ أَسْلَمُوا مِنْ قُرَيْشٍ ، وَاضْطَهَدُوا فِي مَكَّةَ ، فَتَكَوَّنَتْ

مِنْهُمْ عِصَابَةٌ قَوِيَّةٌ، قَطَعَتْ طَرِيقَ الْقَوَافِلِ عَلَى قُرَيْشٍ، فَصَارُوا يَسْلُبُونَ عُرُوضَ التِّجَارَةِ، وَيَفِرُّونَ بِهَا بَيْنَ شِعَابِ الْجِبَالِ.

لَمَّا يَئِسَتْ قُرَيْشٌ مِنْهُمْ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ تَأْدِيبَهُمْ، أَرْسَلُوا وَفْدًا إِلَى الرَّسُولِ، يَعْرِضُونَ عَلَيْهِ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ الْمُسْلِمِينَ اللَّاجِئِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَيُحِلُّونَهُ مِنَ الشَّرْطِ الَّذِي يُحَتِّمُ رَدَّهُمْ إِلَى مَكَّةَ.

اشْتَدَّتْ دَهْشَةُ الْمُسْلِمِينَ لِتَنَازُلِ قُرَيْشٍ عَنِ الشَّرْطِ الَّذِي امْتَازُوا بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَلَمَّا عَرَفُوا السَّبَبَ، زَالَتْ دَهْشَتُهُمْ وَلَمَسُوا حِكْمَةَ اللهِ الَّتِي خَفِيَتْ عَلَيْهِمْ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ.

وَفِي الْعَامِ السَّابِعِ الْهِجْرِيِّ، خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَكَّةَ لِلزِّيَارَةِ، فَمَكَثُوا فِيهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَوَفَتْ قُرَيْشٌ بِعَهْدِهَا، فَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِلْمُسْلِمِينَ.

هَلَّ الْعَامُ الثَّامِنُ الْهِجْرِيُّ، فَوَفَدَ عَلَى الرَّسُولِ فِي مَكَّةَ كَثِيرُونَ مِنْ أَبْطَالِ قُرَيْشٍ مُؤْمِنِينَ، مِنْهُمْ سَيْفُ الْإِسْلَامِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ دَاهِيَةُ الْعَرَبِ، فَاعْتَزَّ

الْإِسلَامُ بِهِمَا وَبِغَيْرِهِمَا ، وَقَوِيَتْ شَوْكَةُ الْمُسْلِمِينَ .

جَاءَتِ الْأَخْبَارُ عَلَى لِسَانِ وَفْدٍ مِنْ خُزَاعَةَ ، أَنَّ قُرَيْشًا نَقَضَتِ الْهُدْنَةَ ، فَنَصَرَتْ قَبِيلَةَ بَكْرٍ عَلَى قَبِيلَةِ خُزَاعَةَ ، وَكَانَتْ بَكْرٌ قَدْ دَخَلَتْ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ ، وَخُزَاعَةُ قَدْ دَخَلَتْ فِي عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا سَمِعَ الرَّسُولُ ذٰلِكَ ، وَعَدَهُمْ بِالثَّأْرِ لَهُمْ ، وَالْانْتِقَامِ لِقَتْلَاهُمْ .

وَعَلِمَ أَبُوسُفْيَانَ بِعَزْمِ النَّبِيِّ عَلَى مُهَاجَمَتِهِمْ ، لِنَقْضِهِمُ الْعَهْدَ ، فَأَسْرَعَ إِلَى النَّبِيِّ لِيُفَاوِضَهُ فِي تَجْدِيدِهِ ، وَيَمُدَّ فِي أَجَلِهِ .

نَزَلَ أَبُوسُفْيَانَ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجَةِ الرَّسُولِ ، فَأَعْرَضَتْ عَنْهُ ، فَلَمَّا يَئِسَ مِنْ وَسَاطَتِهَا ذَهَبَ إِلَى الرَّسُولِ بِنَفْسِهِ ، فَرُدَّ عَنْ مَجْلِسِهِ ، وَلَمْ يُسْمَحْ لَهُ بِالْكَلَامِ ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَاسْتَنْجَدَ بِهِ ، فَتَحَوَّلَ عَنْهُ وَأَنْكَرَهُ .

تَرَكَ أَبَا بَكْرٍ وَالْتَمَسَ الشَّفَاعَةَ عِنْدَ عُمَرَ ، فَوَجَدَهُ أَشَدَّهُمْ إِعْرَاضًا عَنْهُ ، وَإِنْكَارًا لَهُ .

انْتَهَى بِهِ الْأَمْرُ إِلَى عَلِيٍّ ، فَوَجَدَ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءَ ، فِي حِجْرِهَا ابْنُهَا الْحَسَنُ ، فَقَالَ :

يا فَاطِمَةُ ؛ هَلْ لَكِ أَنْ تَشْفَعِي لِقُرَيْشٍ عِنْدَ أَبِيكِ ، فَيَكُونَ ابْنُكِ هَذَا سَيِّدَ الْعَرَبِ أَبَدَ الدَّهْرِ ؟ ! !

قَالَتْ :

يَا أَبَا حَنْظَلَةَ : لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ ، وَمَا أَحَدٌ يُجِيرُ عَلَى رَسُولِ اللهِ .

عَادَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ ، يَجُرُّ أَذْيَالَ الْخَيْبَةِ وَالْفَشَلِ ، فَجَمَعَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ ، وَأَجْبَرَهُمْ عَلَى الصُّلْحِ مَعَ خُزَاعَةَ ، وَدَفْعِ دِيَةِ الْقَتْلَى ، حَتَّى لَا يَنْضَمُّوا إِلَى الرَّسُولِ فِي هُجُومِهِ عَلَى مَكَّةَ .

كَانَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ يُقِيمُ بِمَكَّةَ ، وَهُوَ مِنْ أَشْرَافِ خُزَاعَةَ ، فَتَمَّ الصُّلْحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي سُفْيَانَ ، وَأُرْسِلَتْ دِيَةُ الْمَقْتُولِينَ إِلَى خُزَاعَةَ ، ثُمَّ خَرَجَا مَعًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَنِي خُزَاعَةَ لِتَوْثِيقِ الْعَهْدِ ، وَتَوْطِيدِ السَّلَامِ .

٥

صَدَرَ أَمْرُ الرَّسُولِ بِالِاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ ، وَأَرْسَلَ كِتَابَهُ إِلَى الْقَبَائِلِ الْمُوَالِيَةِ لَهُ :

مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَشْهَدْ رَمَضَانَ فِي الْمَدِينَةِ .

لَبَّى الْمُسْلِمُونَ الدَّعْوَةَ ، وَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْقَبَائِلِ بِخَيْلِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنْ رَمَضَانَ ، فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ خَرَجَ الرَّسُولُ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَكَّةَ ، فَصَادَفَهُمْ فِي الطَّرِيقِ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمُّ النَّبِيِّ ، وَكَانَ قَدْ أَسْلَمَ ، وَخَرَجَ بِأَوْلَادِهِ مِنْ مَكَّةَ ، فَرَحَّبَ النَّبِيُّ بِهِ ، وَأَرْسَلَ أَوْلَادَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ مُكَرَّمِينَ .

أَشْرَفَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَاءِ خُزَاعَةَ ، فَنَزَلُوا فِي وَادٍ فَسِيحٍ ، وَضَرَبُوا خِيَامَهُمْ لِلرَّاحَةِ ، وَانْتَشَرَ الظَّلَامُ ، وَأُوقِدَتِ النِّيرَانُ ، وَكَانَ الْعَبَّاسُ فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ فِي نَوْبَةٍ لِلْحِرَاسَةِ .

بَيْنَمَا كَانَ الْعَبَّاسُ يُرَاقِبُ الصَّحْرَاءَ عَلَى رَبْوَةٍ ، رَأَى

شَبَحَيْنِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ ، وَسَمِعَ أَحَدَهُمَا يَقُولُ لِلثَّانِي :

انْظُرْ يَا بُدَيْلُ ، فَإِنِّي مَا رَأَيْتُ قَطُّ كَهٰذِهِ النَّارِ .

قَالَ الثَّانِي :

يَا أَبَا سُفْيَانَ : هٰذِهِ وَاللهِ نَارُ خُزَاعَةَ قَدْ حَمَشَتْهَا الْحَرْبُ .

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ :

إِنَّ خُزَاعَةَ أَذَلُّ وَأَقَلُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ هٰذِهِ نَارَهَا ، وَأُلْئِكَ عَسْكَرَهَا .

رَفَعَ الْعَبَّاسُ صَوْتَهُ وَقَالَ :

يَا أَبَا حَنْظَلَةَ ؛ أَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَتِلْكَ نَارُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ .

ارْتَاعَ أَبُو سُفْيَانَ ، وَأَخَذَتْهُ الدَّهْشَةُ ، وَقَالَ :

كَيْفَ جِئْتَ مِنْ مَكَّةَ وَحْدَكَ إِلَى هٰذَا الْمَكَانِ ؟ !

قَالَ الْعَبَّاسُ :

لَقَدْ هَدَانِي اللهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ مُحَمَّدٍ .

تَقَدَّمَ أَبُو سُفْيانَ وَ بُدَيْلٌ إِلَى الْعَبَّاسِ ، وَأَخْبَرَاهُ أَنَّ الصُّلْحَ تَمَّ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَخُزَاعَةَ ، ثُمَّ طَلَبَا مِنْهُ أَنْ يَشْفَعَ لِقُرَيْشٍ عِنْدَ مُحَمَّدٍ ، فَاشْتَرَطَ الْعَبَّاسُ لِذٰلِكَ إِسْلَامَهُمَا ، فَسارَعَ بُدَيْلٌ وَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ؛ وَتَلَكَّأَ أَبُو سُفْيانَ ، فَظَلَّ الْعَبَّاسُ بِهِ حَتَّى تَفَتَّحَ قَلْبُهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَنَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ ، ثُمَّ ذَهَبَ الثَّلَاثَةُ إِلَى الرَّسُولِ ، فَبارَكَ إِسْلَامَهُمْ

أَشْرَفَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَكَّةَ ، وَقَسَّمَ الرَّسُولُ الْجَيْشَ ، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ قِسْمٍ قَائِدًا ، وَعَيَّنَ لِكُلِّ قَائِدٍ الْبَابَ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْهُ ، ثُمَّ أَوْصَاهُمْ جَمِيعاً أَلَّا يُقَاتِلُوا إِلَّا مَنْ يُقَاتِلُهُمْ .

رَأَى النَّبِيُّ أَبَا سُفْيانَ مُطْأَطِئَ الرَّأْسِ مَهْمُومًا ، فَقَالَ لَهُ :

مَا بَالُكَ — يَا أَبَا حَنْظَلَةَ — لَا تُشَارِكُنَا الرَّأْيَ ؟ !

قَالَ أَبُو سُفْيانَ :

يَا رَسُولَ اللهِ ؛ لَقَدْ أَصْبَحَتْ قُرَيْشٌ فِي قَبْضَتِكَ ، وَطَابَتْ لَكَ ثِمارُهَا ، وَفِي جَيْشِكَ أَخُو ثَأْرٍ ، وَصَاحِبُ تِرَةٍ ، فَتَرَفَّقْ فِي فَتْحِكَ ، وَلَا تُشْمِتْ بِها الْأَعْدَاءَ .

قَالَ الرَّسُولُ : أَلَا فَاطْمَئِنَّ يَا أَبَا سُفْيانَ ، فَفِي مَكَّةَ إِخْوَةٌ

وَأَخَوَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَآبَاءٌ وَأَعْمَامٌ لِلْمُهَاجِرِينَ ، وَفِيهَا الْبَيْتُ الْحَرَامُ ، بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ .

يَا أَبَا سُفْيَانَ ؛ اذْهَبْ إِلَى قَوْمِكَ ، فَقُلْ لَهُمْ :

إِنَّ مُحَمَّدًا سَيَدْخُلُ مَكَّةَ أَخًا كَرِيماً ، فَلا غَالِبَ وَلا مَغْلُوبَ ، وَلا غَانِمَ وَلا غَارِمَ ، بَلْ هُوَ اجْتِمَاعُ الشَّمْلِ ، وَاسْتِقْرَارُ الأَمْنِ . فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ .

وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ .

وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فَهُوَ آمِنٌ .

سَمِعَ أَبُو سُفْيَانَ كَلامَ الرَّسُولِ ، فَاسْتَبْشَرَ لِقَوْمِهِ ، وَأَسْرَعَ إِلَى مَكَّةَ يَزِفُّ هٰذِهِ الْبُشْرَى إِلَى أَهْلِهَا ، وانْتَشَرَ الْخَبَرُ بَيْنَ قُرَيْشٍ ، فَنَزَلَتِ السَّكِينَةُ فِي قُلُوبِهِمْ .

أَلْقَى الْمُشْرِكُونَ سِلاحَهُمْ ، وأَغْلَقُوا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَهُمْ ، ثُمَّ أَطَلُّوا مِنَ النَّوَافِذِ ، وَسُطُوحِ الْمَنَازِلِ ، يَسْتَقْبِلُونَ جَيْشَ الإِسْلامِ فِي مَهْدِ الإِسْلامِ .

وَبِهٰذِهِ الْخُطَّةِ الْحَكِيمَةِ دَخَلَ الْمُسْلِمُونَ مَكَّةَ فِي أَمَانٍ ، لَمْ يَرْفَعُوا سَيْفًا ، وَلَمْ يُسْفِكُوا دَمًا .

وَلَمَّا هَدَأَ النَّاسُ ، واسْتَقَرَّتِ الْأَحْوَالُ — خَرَجَ النَّبِيُّ إِلَى الْبَيْتِ فَطَافَ بِهِ سَبْعًا عَلَى رَاحِلَتِهِ ، ثُمَّ دَعَا عُثْمَانَ ابْنَ طَلْحَةَ ، وأَخَذَ مِنْهُ مَفَاتِيحَ الْكَعْبَةِ ، ثُمَّ وَقَفَ عَلَى بَابِهَا فَقَالَ :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ .

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ : مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ ؟

قَالُوا :

خَيْرًا ؛ أَخٌ كَرِيمٌ ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ .

قَالَ :

اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ .

مجموعة سيرة الرسول

تضمنت هذه المجموعة حياة الرسول الكريم ، وجمعت فيها الحقائق التى يجب أن يعرفها كل مسلم حتى يكون على علم بأهم التطورات المختلفة التى لابست حياة النبى العظيم ويتبين ما كان له من أثر فى العالم كله : قديمه وحديثه . وفى كل حادثة وردت مواضع للعظة والاعتبار ، ودلائل على أن حياة محمد كانت حياة مثالية كريمة على الله والناس وتصور لنا البذل والتضحية فى أسمى الصور وأرقى المعانى .

برنامج المجموعة

١ — المولد
٢ — النشأة
٣ — الوحى
٤ — فجر الدعوة
٥ — مشرق الدعوة
٦ — نور وضياء
٧ — سحاب وضباب
٨ — مع القبائل
٩ — الهجرة
١٠ — غزوة بدر
١١ — غزوة أحد
١٢ — غزوة الأحزاب
١٣ — فتح مكة
١٤ — الوفاة

ثمن النسخة ٣ قروش

دار المعارف

obeikandi.com